محظوظٌ مَن يُقيَّضُ له أن يعيش لحظةَ الثورة!

(لوحات عن ثورةٍ عمرُها آلاف السنوات ـ مكابدات شخصيّة)

كتابة وتخطيطات: أحمد بهاء الدين شعبان*

بين يومي الثلاثاء ٢٥ يناير والجمعة ١١ فبراير، عاشت مصر لحظة تاريخيّة فارقة في مسيرة حياتها الممتدّة لآلاف السنين. فقد كانت روحُ هذا الوطن الخالد تقاوم رياحَ الموت والخراب، وتنهض من الركام لتحيا مجدّداً، تماماً مثلما كانت روحُ أوزيريس الطيّب تحارب مؤامرات «ست» الشرّير، التي مزّقتْ جسدَه الطاهر إرباً، بينما راحت الزوجةُ المحبّةُ المخلصة إيزيس تَجمع من جديدٍ أشلاءه الممزّقة وتلمّ ما بعثرتْه يدُ الفوضى التي عاثت في الأرض فساداً، على نحو ما سجّل يراعُ الحكيم نفر روهو: «انتبهْ يا قلبي، واذرف الدمعَ على هذه البلاد في كلّ نبضاتك. كيف أضحت هذه البلاد وأمست؟... إنّ الشمس قد احتجبتْ ولم تعد تشرق ليرى الناس... ونهر مصر قد جفَّ حتى ليستطيع المرءُ أن يعْبره ماشياً... وظَهَرَ الأعداءُ في برّ مصر، وما لم يكن يحدث أبداً قد حدث!»

---

* ـ كاتب وناشط مصريّ

(١)

عمّ الفساد في البرّ والبحر

مرّت آلافُ السنين منذ أن انطلقتْ مشكاةُ نفر روهو، ومن بعده مظلمةُ الفلاّح المصريّ الفصيح: «لقد عمّ الفسادُ في البرّ والبحر/ ولا أحد في الوجود يستمع إلى شكواي!»

عمّ الفساد حتى غطّى، لا «الرُكبَ» فحسب، كما كان يقول أحدُ صانعيه الأساسيين وأبرزُ رموزه، زكريا عزمي، كبيرُ موظّفي الديوان الرئاسيّ وساعدُ حسني مبارك الأيمن (يُحاكم الآن بتهمة الإفساد والكسب غير المشروع)، وإنّما أصبح يغطّي هامات الوطن كلّه إنّه فسادٌ بنيويّ اخترم نخاعَ مؤسّسات النظام وأبنيته الهيكليّة؛ ذلك أنّ شعار المرحلة كان: «لكي يبقى الفاسدون الكبار لا بدّ أن يتلوّث الجميع.» وهذا ما كان.

مؤسّسة الفساد تحتاج إلى مؤسّسة قمعٍ عُظمى ترعاها وتحميها، تتكوّن من مليون ونصف المليون من جنود جهاز «الأمن المركزيّ.»

ومؤسّسة الفساد تحتاج إلى مؤسّسة قمع عُظمى ترعاها وتحميها، مؤسّسة تتكوّن من مليون ونصف المليون من جنود جهاز «الأمن المركزيّ.» جيشٌ جرّارٌ، يساوي نحو أربعة أضعاف تعداد القوات المسلّحة النظاميّة، ويبتلع ميزانيّةً تفوق ما يخصّص لصحّة أكثر من ثمانين مليون مواطن كلّ عام، ويستخدمه لسحق معارضي النظام جهازُ «مباحث أمن الدولة» المرعب، الذي أصبح اسمُه رديفًا للخوف والقهر وإرهاب الدولة والبطش والتعذيب بلا حدود. جهازٌ تخصّصَ في التنكيل بالمعارضين، وانتزاع الاعترافات من المساكين الذين تُلقيهم الأقدارُ في طريقه؛ بل استخدمتْه بعضُ الدول الغربيّة الكبرى، التي لا تصرّح قوانينُها بتعذيب المناوئين داخل حدودها، لإجبار معتقليها على الكلام.

لقد كمّم جهازُ مباحث أمن الدولة الأفواهَ، وحاصر الأحزابَ «الرسميّة» وسجَنَها داخل مقارّها، وزوّر انتخاباتِ مجلسَي الشعب والشورى ونقابات العمّال واتحادات الطلاّب، وخَنَقَ منظّمات المجتمع المدنيّ، وتدخّل في تعيين أعضاء هيئات التدريس في الجامعة، وتحكّم في صياغة الأغاني وخُطب الجوامع، واحتضن جماعاتِ التطرّف الدينيّ. كما اصطنع سلاحَ البلطجيّة الذين يستخدمهم وقتَ اللزوم للانقضاض على خصوم النظام، واخترقتْ عيونُه كلَّ الأماكن من دون تمييز، فلم يرعَ للبيت حرمةً، واستباح الأعراضَ والأغراض. وفي السنين الأخيرة أطاح الجهازُ كلَّ الضوابط التي تعوّق استئسادَه على المواطن الأعزل البسيط، فأشاع الرعبَ في أرجاء البلاد، وأصبح اللاعبَ الأساسَ في شؤون البلاد والعباد كافّةً.

ولهذا كلّه، فاجأتْ وقائعُ الثورة المصريّة الكثيرين من محبّي مصر وأصدقائها قبل كارهيها وأعدائها ـ وهذا أمرٌ مفهوم: فالظاهر على السطح، لأيّام خلت قبل وقائع الثورة، أنّ مصر انتهت. وكان بعضُ «كبار» كتّابِ السلطان قد تساءل في تعالُم استنكاريّ: «لماذا لا يثور المصريون؟،» فاستخدم كلّ أحابيل الكتابة وألاعيب المزوِّرين من أجل تقديم مسوّغات مبتذلة تدلّل على أنّ ثورة الشعب المصريّ (المزعومة) ليست سوى أضغاث أحلام، يحيا بها، ولها، بعضُ الواهمين. لماذا؟ لأنّ المصريين لن يثوروا أبدًا، ولماذا يثورون وقد ازدادت أعدادُ ما يملكونه من أجهزة التليفون المحمول وأجهزة التكييف بنسبة كذا في المائة؟ فكأنّ الشعوب لا تثور إلا في سبيل تملّك هذا الجهاز أو ذاك ـ وهي رؤيا «حداثيّة» بائسة، تتّسق ومنهجَ «رَوْبتة» الإنسان، أيْ تحويله إلى إنسانٍ آليّ بلا روح أو تاريخ أو حلم أو ذاكرة أو حسّ أو وجدان!

إنّ المصريين، بحسب رئيس الوزراء المخلوع الدكتور (!) أحمد نظيف، ودونًا عن شعوب الأرض قاطبةً، «غيرُ مهيّأين لتقبّل الديموقراطيّة،» والطلبُ على الحريّات السياسيّة «غير وارد بالنسبة لأغلبيّة المصريين.» فالمصريّون، مرّةً أخرى، وخلافًا لتوجّهات كلّ ساكني المعمورة، «لا يهتمّون إلاّ بالمسائل الاقتصاديّة: الأكل والشرب وما شابه!»

(٢)

قبل الخبز... الكرامة الإنسانيّة!

لكنّ المصريين، مثلهم مثل باقي أناس الأرض، تُحرّكهم حاجاتُهم الضروريّةُ إلى البقاء قَدْرَ ما تحرّكهم حاجتُهم إلى الكرامة والكبرياء، وتشدّهم قيمُ الحقّ والخير والعدل والحريّة بالمقدار الذي تشدّهم مساعي تطوير أوضاعهم الاجتماعيّة... إنْ لم يكن أكثر. ولهذا لم يكن غريبًا، إلاّ لدى مَنْ لا يعرف شعبَ مصر جيّدًا، أن تبرز في ساحات التحرير وميادين التظاهر شعاراتٌ بالغةُ الأهميّة والدلالة: «مدنيّة... مدنيّة. . لا دينيّة ولا عسكريّة!» ـ «تغيير... حريّة.. عدالة اجتماعيّة» ـ «خبز... حريّة... كرامة إنسانيّة.» فالمصريون، رغم أوضاعهم الماديّة الصعبة بسبب النهب المنظّم الذي مارستْه مافيا مبارك على امتداد ثلاثين عامًا ودَفَعَ بنصفهم تقريبًا إلى تخوم الفقر، ثاروا طلبًا للتغيير من أجل الدولة المدنيّة الخالصة والحريّة والكرامة والعدالة الاجتماعيّة. إنه برنامج كامل للمستقبل، طرحه الشعبُ في ثورته الأخيرة بوضوح وعبقريّة وحسم

(٣)

محظوظٌ مَن يُقَيَضُ له أن يعيشَ لحظةَ الثورة!

بالنسبة إليّ، وفي حدود التجربة الشخصيّة، أعتبر نفسي إنسانًا محظوظًا. ففي هذا الزمن الصعب، محظوظ من يُقيَضُ له أن يعيش، وأن يساهم، في إنجاز انتفاضةٍ واحدة، فما بالك في انتفاضتين وثورة؟!

(أ) ـ رجعوا التلامذه!

الأولى، حين كنتُ أدرّس الهندسةَ في جامعة القاهرة، عقابيلَ «نكسة» ١٩٦٧. كنّا أبناء «جيل الثورة» الذي أعدّه عبد الناصر ليحمي المسيرةَ ويستكملَ الملحمة. لكنّ وقع الهزيمة كان مُزلزلاً،

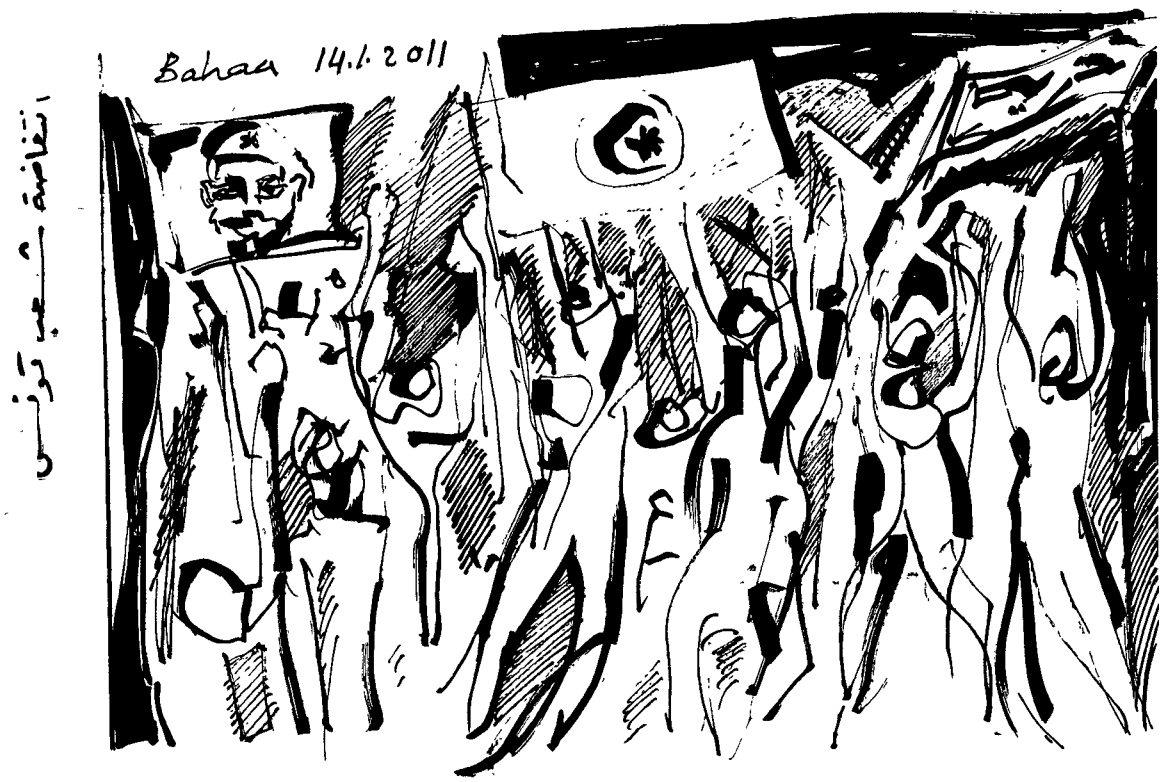

عليّ، وعلى أبناء جيلي كلّه: فقد هوى المثال؛ وما ظننّاه شامخًا صامدًا عصيًّا على الانحدار تداعى وانكسر.

يومها تمزّقنا، وانشطرتْ أرواحُنا الغضّة: بين حلم اعتقدنا أنّنا طاولناه أو كدنا، وواقع خاننا واستلّ منا زهوةَ حيَاتنا. فثرنا على مَنْ فَجَعَنا في أحلامنا، وعلى أبينا الذي خذلَنا بعد أن بايعناه على وجودنا.

انطلقتْ مظاهراتُنا من الجامعة والمناطق الصناعيّة؛ خرجتْ من القاهرة وحلوان وعين شمس والإسكندريّة تدين الأحكامَ الهزيلة التى أصدرتْها محكمةٌ عسكريّة رسمية في حقّ المتسبّبين في الهزيمة. وشعرنا وقتَها أنّ نظام عبد الناصر، بل عبد الناصر نفسه أيضًا، يخذلنا، مرّةً أخرى، بتبرئة «الكبار» المتسبّبين فى الهزيمة من جرمهم العظيم في حقّ الشعب والوطن، وخامرَنا الإحساسُ بأنهم لا يشعرون بعمق جرحنا.

خرجت المظاهراتُ لأوّل مرة تهتف ضدّ عبد الناصر وحكمه ولأول مرّة يشعر «الريّس» بأنه يفقد العلاقةَ مع أبنائه الذين وضع فيهم غايةَ أمله، فبكى. وكانت مشكلتنا أننا صدّقناه. فلمّا تفتّحتْ عيونُنا على الحقيقة المرّة، صدَمَنا الواقعُ الكئيب، وأدمتْنا رؤيةُ جنود العدوّ الصهيونيّ وأعلامهم على مرمى حجر من القاهرة، هناك على ضفّة قناة السويس، بعد أن اجتاحت جحافلُهم كلَّ فلسطين، وأقسامًا من جنوب لبنان، وشرق الأردن، ومرتفعات الجولان، دفعةً واحدة!

وعدنا نرنو إلى الأفق. وكان حلمنا هذه المرّة: أن نحرّر أرضَنا المحتلّة.

كان عبد الناصر، المهموم بأثقالٍ تنوء بحملها الجبال، قد أنهكته الهزيمةُ وآثارُها وتوابعُها، فرحل مُسلّمًا مصيرَ الوطن لأنور السادات، الذي فقد تعاطفَنا منذ اللحظة الأولى؛ فلقد استشففنا سريعًا ملامحَ سياسته التي لخّصها في جملةٍ واحدة: «٩٩ في المائة من أوراق اللعبة في يد أمريكا » فثرنا عليه، لكنّ الثورة هذه المرة كانت مختلفة: فثورتنا على عبد الناصر كانت ثورةً على الأب الذى خذلنا وكنّا نحبّه؛ أما ثورتنا على السادات فثورة على فرد كنّا لا نأتمنه ولا نثق في وعوده، بل نمتلئ بهواجس سلبيّة تجاهه.

وانفجرتْ غضبةُ الشباب في ثورةٍ عارمةٍ على تأجيل تحرير الأرض المحتلّة تكرارًا. ووقع الصدامُ مرّة أخرى بيننا وبينهم: بين الشعب وبين حرّاس النظام. وحين أغلقوا عليّ بوّاباتِ الزنزانة الانفراديّة بسجن القلعة الرهيب، «باستيل» مصر، الذي اشتُهر بأنّ «الداخل إليه مفقود، والخارج منه مولود،» يومَ الرابع والعشرين من يناير ١٩٧٢، مغلولاً بالأصفاد الحديديّة، ومعصوبَ العينين، أيقنتُ أنها النهاية. غير أنّي عاهدتُ نفسي بعدها، إنْ كُتب لي عمرٌ جديد، ألاّ أخشى الظلمَ أبدًا، وأن أبذل قصارى جهدي لكي يعيش وطني وأهلي في عدل وحريّة.

من وحي هذه اللحظات التي لا تُنسى، كتب أحمد فؤاد نجم رائعتَه الشهيرة التي لحّنها وغنّاها الشيخ إمام: «أنا شفت شباب الجامعه الزين / أحمد وبهاء والكردي وزين [قادة الانتفاضة الطلابيّة في السبعينيّات، وبهاء هو كاتب هذه السطور/] حارمينهم حتى الشوفْ بالعين / وف عزّ الضهر مغميّين / عَيْطي يا بهيّة على القوانين / أنا رُحْت القلعة وشفت ياسين.» وفيما

كان صمتُ المعتقل يلفّنا بمخاوفه وغموضه، كانت جموعُ الشباب وآلافٌ من أبناء الشعب يزحفون إلى مركز الدائرة وقدس الأقداس، ميدان التحرير، احتجاجًا على اعتقالنا، فيصطدمون مجدّدًا بأداة القمع المستعدّة دومًا لإسالة المزيد من الدماء البريئة. ومن وحي هذه المشاهد الملحميّة كتب الشاعر الراحل العظيم أمل دنقل رائعتَه «أغنية الكعكة الحجريّة»: «أيها الواقفون على حافّة المذبحة/ أشهروا الأسلحة/ سقط الصمت وانفرط القلبُ كالمسبحة/ والدمُ انساب فوقَ الوشاح/ المنازلُ أضرحه/ والزنازينُ أضرحه/ والمدى أسلحه/ فارفعوا الأسلحه/ واتبعوني، أنا ندم الغد والبارحه/ رايتي عظمتان وجمجمه، وشعاري الصباح.» لكنّ أبناء الشعب المعتصمين فى ميدانهم أقسموا ألاّ يغادروه إلاّ ونحن معهم، فانحنى الساداتُ للعاصفة، واضطرّ إلى أن يطلق سراحَ الشباب الذين اعتقلهم، لتكتمل فرحةُ الشعب بعودة أبنائه.

«رجعوا التلامذة، يا عمّ حمزه ، للجدّ تاني!»

في هذا الزمن الصعب، محظوظٌ من يُقيضُ له أن يعيش، وأن يساهم، في إنجاز انتفاضةٍ واحدة. فما بالك في انتفاضتين وثورة؟!

(ب) متّهم بالتحريض على «انتفاضة الحراميّة»

في ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧، خرج الملايينُ من أبناء شعبنا يزأرون غضبًا على مَنْ مَسّ أقواتهم، وراح بعد أن بدّد ثمارَ حربهم عام ١٩٧٣ يستلّ من أفواه أطفالهم لقمةَ خبزهم الفقيرة.

الملايين صدمتْها قراراتُ رفع أسعار السلع الأساسيّة التي تُبقيهم، وذويهم، على تخوم الحياة. فخرجوا يهتفون:

«هو [أي السادات] بيلبس آخرْ موضه. . واحنا بنسكن عشره في أوضه/ هو بيلبس آخر موضه... واحنا تاكلنا السوق السوده/ هو بيبني في استراحات... واحا نعاني آهات وآهات/ همّا بياكلوا حمام وفراخ... واحنا الجوعْ دوّخنا وداخ/ مش كفايه لبسنا الخيشْ... جايين ياخدوا رغيف العيشْ!/ قولوا للنايم فى عابدين [قصر عابدين...] العمّال بيباتوا جعانين/ يا حاكمنا بالمباحث... كلّ الشعب بظلمك حاسسْ!/ الصهيوني فوق ترابي... والمباحث على بابي!/ يا أهالينا يا أهالينا... أدي مطالبنا وأدي أمانينا: أول مطلب يا شباب... حقّ تعدّد الأحزاب/ تاني مطلب يا جماهير... حقّ النشر والتعبير/ تالت مطلب يا أحرار... ربط الأَجْر بالأسعار!/ إحنا الطلبه مع العمّال ... ضدّ حكومة راس المال!»

وتهاوت قدما السادات حتى كاد يسقط عن عرشه. لكنّه تماسك في اللحظة الأخيرة، واستعاد سيطرته على مقاليد الحكم، وشنّ حملةَ اعتقالات وتصفيات دامية، انتقامًا من ثورة فقراء مصر التي أسماها «انتفاضة الحراميّة» بفعل كراهيّته الشديدة، التي ظلّ يحملها، لذكراها، حتى اغتياله عام ١٩٨١ وقد قدّم ١٧٦ مناضلاً لمحاكماتٍ عاجلة (كنتُ السادسَ في ترتيبهم العامّ)، والتهمةُ جاهزة: الانتماء إلى منظّمات غير شرعيّة [شيوعيّة] تستهدف قلبَ نظام الحكم، والتحريضَ على التظاهر، وإتلافَ المال العامّ، إلى آخر هذه الأسطوانة المشروخة المكرّرة، ووسط حملة إعلاميّة بشعة تستهدف شيطنةَ المعتقلين وإلصاقَ أبشع التهم بهم، بدءًا بالتخريب وانتهاءً بالعمالة. ووقف السادات يزبد ويرغي ويهدّد بـ «الديموقراطيّة ذات الأنياب» وبـ «فَرْم المعارضين»... لكنْ، وبحسب تعبيره الطريف، «كلّه بالقانون!»

غير أنّ قضاءَ مصر النزيه لم يقبل الدنيّة، وأفرج عن الجميع، بعد أن برّأهم، رغم أنف السلطان، من التهم المفبركة، عدا قلّة ضُبطتْ «متلبّسةً» بتوزيع منشوراتٍ ثوريّةٍ على الجماهير.

(ج) «يا زمان صوِّرْنا... صوِّرْنا يا زمان»

فجر يوم ٤ فبراير ٢٠١١.

يوم شتويّ بارد مبلّل بالمطر.

بعد ساعاتٍ طويلةٍ مكتظّةٍ بالجهد والقلق والترقّب، آن للجسد المرهق أن يرتاح قليلا.

هبطتُ بجسدي إلى أرض «ميدان التحرير» الباردة، وتحتي شريحةٌ من البلاستيك الذي يُستخدم للوقاية من المطر، وابني يبحث عن شيءٍ ما يغطّيني به ليُبعدَ عني غائلةَ البرد.

في مساء اليوم السابق انتشرتْ إشاعةٌ تقول إنّ اليوم فجرًا قد يُقْدم التتارُ على مهاجمة الميدان مرّةً أخرى، أسوةً بما فعلوه وفشلوا فيه في الأيام الماضية. فلم تطاوعْني نفسي أن أبحث عن مكان قريب، مدخل بناية أو ما شابه، نقضي فيه ساعات الليل الباردة حتى شقشقة الصباح، وآثرتُ وابني أن نبقى مع آلاف الشباب الذين صنعوا بأجسادهم خطوطَ دفاعٍ متتالية، حمايةً للميدان، قلبِ الثورة النابض، من الاختطاف.

نظرتُ إلى السماء التي كشف المطرُ عن نجومها، وسرحتُ طويلاً. فاليوم يومُ ميلادي، ومنذ نحو أربعين عامًا قضيتُ ليلة كهذه في معسكرٍ للأمن المركزيّ، نقلونا إليه مخفورين، وسط مظاهرة مسلّحة، بعد أن اقتحموا الحرمَ الجامعيّ، واعتقلوا نحو ألف وخمسمائة طالب وطالبة كانوا معتصمين بقاعة جمال عبد الناصر، قاعةِ الاحتفالات الكبرى في جامعة القاهرة، يطلبون الحريّة للوطن والعدل للمواطنين.

يا الله، ما أبطأ إيقاعَ بلادنا، ورتابة خطواتها! أربعون عامًا من الصراع اليوميّ، والسجون، والمعتقلات، والمنافي، والتظاهرات، والصدامات، وتلقّي صعقات العصى الكهربائيّة، واستنشاق الغازات المسيّلة للدموع، والتعذيب، وركلات قوات «مكافحة الشغب.»

تذكّرتُ كوكبةً من المناضلين والشهداء العظام الراحلين صورةُ المفكّر الكبير الدكتور عبد الوهّاب المسيري، رحمه الله، لا تبارح خيالي، ونحن، قادة حركة «كفاية» ومؤسّسيها، نحيط به إشفاقًا

عليه من مرضه العضال، حين اخترناه منسّقًا للحركة، وأصرّ على المشاركة في مظاهرة حاشدة تطالب بالحريّة وترفض توريثَ السلطة للابن أو مدَّها للأب نفسه. يومَها، أحاطونا كالكلاب السوداء، وأخذوا يدفعوننا بعدوانيّة وشراسة، ويضربوننا من دون رحمة، حتى سقط جسدُه المنهك على الأرض، ونحن نقاتل لاستنقاذه من بين أنيابها الدمويّة، فأنهضناه، وأبعدناه عن متناولهم، وهو يبتسم في قوة وتواضع، وكأنّ لسان حاله يقول: «أبتاه، اغفرْ لهم، فهم لا يعلمون ما يفعلون!»

جفاني النومُ. رنّ في سمعي صدى أصواتنا، ونحن منقولون (فجرًا) في سيّارات الأمن المركزيّ الحديديّة، منذ نحو أربعة عقود، أيدينا «مكلبشة» في ماسورة مربوطة بجانب العربة، تتخبّط أجسادُنا المنهكة بحوافّها الحادّة لدى كلّ منعطف، وصوتُنا المبحوح المتعب يصرخ في المدينة النائمة، عسى أن يسمع نداءنا بشر: «إصحي يا مصر ... إصحي يا مصر!»

نظرتُ حولي على ضوء الميدان الخافت. آلافٌ من الأجساد تتمدّد، كجسد واحد عملاق، في استراحة محاربٍ قصيرة، ترقّبًا لساعاتٍ جديدةٍ من الصراع. وهناك، من بعيد، أغنياتٌ تتردّد: «الجدع جدع والجبان جبان... يللا بينا يا جدع ننزل الميدان... والميدان بعيدْ عن جوف المدينة... يا تار الشهيد في القنال وسينا» ـ «لسّه الأغاني ممكنه» ـ «صورة للشعب الفرحان جنب الرايه المنصوره... يا زمان صوِّرْنا... صوِّرْنا يا زمان... واللي هيهرب م الميدان... عمرُه ما حيبانْ فى الصورة!»

ابتسمتُ في سرّي، ورحتُ في غفوةٍ مديدة.

(٤)

«قالولي يللا ع الجنّه... قلتلهم الجنّه بلادي»

أكتُبُ الآن هذه الكلمات مع مقدم فجرٍ جديد.

صوتُ مغنٍّ يأتي من بعيد، يشدو بأغنيةٍ جميلةٍ عن شهداء ٢٥ يناير، تَدْفع بالدمع إلى العيون:

«بلادي بلادي... أنا باحبّك يا بلادي

قولوا لأمي ما تزعليش... وحياتي عندك ما تعيّطيش

قولولها معلشْ يا أمّي... أموتْ أموتْ وبلادنا تعيشْ!

أمانة تبوسولي إيديها، وتسلّمولي على بلادي.

بلادي بلادي... أنا باحبّك يا بلادي.

في جسمي نار ورصاص وحديد... علَمِكْ فى إيدي وإسمي شهيد.

بودّع الدنيا وشايفِكْ، يا مصر، حلوه ولابسه جديد.

لآخر نَفس فيّا بنادي: أنا باحبّك يا بلادي.

بلادي بلادي. . أنا باحبّك يا بلادي.

طايرين ملايكه حواليا طيْر... لحظة فراقك يا حبيبتي غيرْ.

همْشِي معاهُمْ وحاسيبكْ... واشوفْ يا مصر وشّكْ [وجهك] بخيرْ.

قالولي يللا ع الجنّه... قلتلهم الجنّة بلادي

بلادي بلادي... أنا باحبّك يا بلادي.»

القاهرة